موازنة حازمة

قال قتيبة بن مسلم[١]: "إذا تخالجَتك الأمورُ فاستقلَّ بأعظمِها خطَراً، فإن لم يَستبِنْ فأرجاها درَكًا، فإن اشتبهَت عليك فأحراها ألا يكون لها مرجوعٌ عليك"[٢].

•••

الغريب:

تخالجتك: تجاذبَتك وتنازَعتك. **خطَراً**: شأناً وقَدْراً. **درَكاً**: غنيمةً وظفَرا.

أحراها: أولاها وأجدرها. **مرجوع**: مردود، وأراد ما يرجِعُ على صاحبه بالسوء.

•••

البيان:

للحزم أمارات يعرف بها أصحابه، وللعقل علامات يستدل بها على أهله، وإن من أظهرِ مواطن امتحان الحزم والعقل في الرجل أن تتزاحم عليه الأمور، وتفترق أمامه المسالك، وتتقابل بين يديه الفُرَص، وتكثر بين يديه الخيارات، وتتوارد عليه المشاغل، فبمقدار حزم الرجل وعقله يكون اختياره سديداً وانتقاؤه صائبا.

ومن هنا نشأ ما يسميه بعض الناس (فقه الموازنة)، ذلك أن الموازنة تستدعي قدراً من الفقه يعرف به المرءُ أيَّ شيءٍ يُقدِّم ويختار؟ وعمَّ يستغني ويتخلى؟ وأين الطريق التي يسلكها؟ وما الأمر الذي يرتضيه؟

يقدِّم القائد المحنك قتيبة بن مسلم وصيةً يقطِفُ فيها ثمرةَ تجاربه الطِّوال ومعاركه العديدة، فيقول: **(إذا تخالجَتك الأمورُ فاستقلَّ بأعظمِها خطَراً)**، أي إذا تجاذبتك الأمورُ وازدحمَت عليك وضاقَت بك ساحتُها ولم تستطع الجمعَ بينها فاعمد إلى أعظمها شأناً وأجلِّها قدراً وأرفعها منزلةً؛ فإنك إذا شغلت نفسك به وتركت التافه الحقير لم يفُتك شيء، والعظائم أولى باهتمامك وحرصك وإقبالك.

---

(١) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، القائد المشهور، فاتح بلاد ما وراء النهر، وحامل لواء الجهاد في خراسان، عوَّل عليه بنو أمية في فتح شرق الأرض ووكلوا ذلك إليه، واشتهر بحسن التدبير وحدة الذكاء وجودة السياسة، ونُسِجَت حول شجاعته كثير من الروايات والقصص في الأدب الشرقي، وفضله الناس في شجاعته على أبناء المهلب. قال الأصبهند -وهو من ملوك الترك-: **(لو كان قتيبة بأقصى حجر في الغرب مكبلًا، ويزيد بن المهلَّب معنا في بلادنا والٍ علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد)**. وكان من أفصح القادة لساناً وأحسنهم خطابة. ت:٩٦هـ مقتولاً غدرا.

(٢) حكاه ابن المقفع في الأدب الصغير (٥٤) من غير نسبة. وهو منسوب في نثر الدر (٦٤/٥) والتذكرة الحمدونية (٣٠٧/٣) وغيرها.

أما إذا استوَت الأمورُ عندك في عظم أهميتها ورفعة شأنها وأسبقيَّة منزلتها، أو لم تميز جليلَها من حقيرها وعظيمَها من صغيرِها، وتعذر عليك أن تنتقي من الفرص ما كان عظيماً جليلاً من بين غيره، فانتقل إلى الموازنة الثانية: (**فإن لم يَستبِنْ فأرجاها درَكًا**)، أي اقصد إلى أكثرها نفعاً لك وأحسنها عائداً عليك فاظفر به ولا يفُتك؛ فإذا لم تجد العظيم الذي تقدمه على غيره فلا أقل من أن تظفر بالسمين الذي يكفيك عمن سواه.

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لفرصتهِ ** حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدَرا

فإن تشابهت الأمور بعد ذلك فلم تر منها عظيماً تقدمه، ولم تجد فيها غنيمةً تظفر بها، وكانت كلها سواء في الشر، أو لم تعرف منها ما امتلأ بالخير، فصِرْ إلى المرتبة الأخيرة: (**فإن اشتبهَت عليك فأحراها ألا يكون لها مرجوعٌ عليك**)، واختر من الأمورِ ما تنصرِفُ منه بالسلامة، ولا يجر إليك مفسدة، فإذا لم تغنم شيئاً فاحرص على ألا تُسلَب شيئاً، واجعل من حزمك أن تتوقى مواطن الشر وتجتنب بوارق الأذى، وتفكر في عواقب ما أنتَ مُقبلٌ عليه، وارقبه مراقبةَ من يصير إليه. وكن كما قيل:

بصيرٌ بأعقابِ الأمور، كأنَّما ** تُخاطِبُهُ من كلِّ أمرٍ عواقبُهْ!

وكما قيل:

رأى الأمرَ يُفضِي إلى آخِرٍ ** فصيَّرَ آخرَهُ أوَّلا!

وأخيرا، تأمل إلى فصاحة هذه العبارة وحُسن تصرّف صاحبها في الألفاظ، فإنه عبر في الأولى بقوله: (**إذا تخالجتك الأمور**)، ثم قال: (**فإن لم يستبِن**)، ثم قال: (**فإن اشتبهت عليك**)، فجعل لكل مرتبةٍ ما يناسبها من الألفاظ من غير تكرار. وقال في المرتبة الأولى: (**أعظمها**)، وفي الثانية: (**أرجاها**)، وفي الثالثة (**أحراها**)، فلم يكرر شيئاً. وقال في الأولى (**خطَراً**)، وفي الثانية (**درَكاً**)، فأتى بالفاصلة على وزنٍ واحد مع اختلاف الألفاظ والمعاني ولو حاولت أن تبدل بين كلمتين لم تجدها على حُسنِ الترتيب الذي وضعَه.

ثم ختم بجملةٍ طويلةٍ ليست على وزان الجملتين السابقتين، فقال: (ألا يكون لها مرجوعٌ عليك) **فكأنما أسبغ على ختام الجملة ثوباً ضافياً وقرع بها جرساً رناناً يبقى في أذن سامعه ولو بعد حين!**